سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

محاضرة

الإيمَانُ بالقَضَاءِ والقَدَرِ

فضيلة الشّيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الحمد لله ربِّ العالمين، أحمده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حمدًا كثيرًا طيِّبا مباركًا فيه كما يحب ربُّنا ويرضىٰ.

وأشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

اللَّهمَّ لا علم لنا إلَّا ما علَّمتنا، اللَّهمَّ علِّمنا ما ينفعُنا وزِدْنا علمًا، واجعل ما نتعلَّمه حجَّة لنا لا علينا، وأصلح لنا شأننا كلَّه يا ذا الجَلال والإكرام.

باسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

وبعدُ..

أيُّها الإخوة الكرام، هـٰذا حديث عن أصلٍ عظيمٍ من أصول الإيمان وركن جليل من أركانه العظام ألا وهو **الإيمان بالقضاء والقدر**.

ومن المعلوم -أيُّها الإخوة الكرام- أنَّ الإيمان الذي خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لأجله وأوجدنا لتحقيقه يقوم علىٰ أركانٍ ستَّة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

وقد جمعها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث جبريل المشهور عندما سأل النَّبي ﷺ عن الإيمان قال: أخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تُؤْمِنَ بِالله، ومَلائِكتِهِ، وكُتُبِه، و رُسُلِه، واليَوْمِ الآخِرِ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه**».(١)

وقد جاء ذكر هـٰذا الأصل في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه، منها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[الأحزاب]، وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر]، وقال جلَّ وعلا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[الأعلىٰ]، وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[طه]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، وقال جلَّ وعلا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التكوير]، والآيات في هـٰذا المعنىٰ كثيرة

---

(١) أخْرَجَه مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ (كِتابُ الإيمانِ، بابُ بيانِ الإسْلامِ والإيمانِ والإحسانِ ح٨).

(٢) سورة: البقرة، الآية (٢٠)، وغيرها.

في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

والإيمان بالقدر أصل جاء تبيانه في السُّنة وتبيان مكانته العظيمة ومنزلته العليَّة الشَّريفة، قد جاء عن نبيِّنا ﷺ أحاديث كثيرة جدًّا في بيان أنَّ الأمور كلَّها بقدر الله عَزَّوَجَلَّ وأن كل ما يقع وسيقع وكان وسيكون كلُّ ذلك بقدر الله جلّ وعلا.

جاء في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال : «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ العَجْزُ وَالكَيْسُ**»[١] الكَيْس: النَّباهة والفطنة والذَّكاء، والعجز معروف، فكل ذلكم بقدر، ولهذا شُرع لنا فيما شُرع لنا من دعوات أن نقول : «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**»[٢] لأنَّ الذي يُعيذ من العجز والكسل هو الذي بيده أزِمّة الأمور ومقاليد السَّمٰوات والأرض، فلا يسلم عبد من الكسل ولا يسلم من العجز إلَّا إذا سلَّمه الله؛ لأنَّ الأمور بيد الله عَزَّوَجَلَّ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وجاء في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وغيرهما[٣] عن الوليد ابن الصحابي الجليل عبادة بن الصَّامت قال : (دخلت علىٰ والدي يومًا وأنا أتخايل فيه الموت) يعني كان مريضا مرض الموت، فقلت له: (يا أبتاه أوصني واجتهد لي)، أي في الوصية ، (فقال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: يا بني اعلم أنك لن تبلغ صريح الإيمان وحقيقة المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتىٰ تؤمن بالقدر كلِّه خيره وشره من الله تعالىٰ، فقال: وكيف أعرف القدر خيره وشرَّه من الله؟ قال: أن تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**» يا بني اعلم إنّك إن متَّ علىٰ غير ذلك دخلت النار).

فالإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ أصل لا ينتظم دين العبد، ولا يستقيم أمره إلا به، وقول عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لن تبلغ صريح الإيمان ولا حقيقة المعرفة بالله حتىٰ تؤمن بالقدر. هٰذا يبين أن الذي لا يؤمن بالقدر ما عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا عرف عظمة الله ولا قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقَّ قدره، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر:٦٧].

---

(١) أخرجه مسلم (ح٢٦٥٥) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (ح٦٣٦٧) ومسلم (ح٢٧٠٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (ح٢٢٧٠٥)، والترمذي (ح٢١٥٥) وأبو داود (ح٤٧٠٠) وصححه الألباني في «الصحيحة» (ح١٣٣).

فالذي لا يؤمن بالقدر لم يعرف الله ، قد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: (القدر قدرة الله) [١]، فالذي لا يؤمن بالقدر هو في الحقيقة لا يعرف الله، ولا يؤمن بالله، وليس من الموحِّدين، ولا من المؤمنين؛ بل يكون من الكفَّار أهل النّار.

ولهذا جاء عن الصَّحابي الجليل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال: (**القدَرُ نظام التّوحيد؛ فمن آمن بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه**) [٢] أي أنّه بتكذيبه بالقدر ينتقض توحيده، فلا يكون مؤمنا؛ بل يكون كافرا بالله، وإذا كان الإيمان بالقدر نظامُ التَّوحيد، بمعنىٰ أنّ توحيد العبد لا ينتظم إلاّ بالإيمان بالقدر فإنّ التَّوحيد نفسَه نظام الحياة، فحياة الإنسان لا تنتظم إلا بتوحيد الله. ومن لم يوحّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولم يكن من أهل توحيده -جلّ وعلا- تكون أموره وحياته وشؤونه كلها فُرُطًا، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف].

فإذا انهدم التَّوحيد انفرطت الحياة، وضاع الزِّمام، وانفلت الخِطام، وتبدّدت الأمور، وعاش الإنسان في ضياع، وأصبحت حياتُه كلّها تَباب، لا قيمة لها؛ خُسران في خسران، وحِرمان في حرمان، وضياعٌ في ضياع.

فلا تنتظم الحياة إلا بتوحيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا ينتظم توحيده -جلّ وعلا- إلا بالإيمان بقدره، وأنّ الأمور كلّها بتقديره عَزَّ وَجَلَّ، وأنّ الأمورَ كلّها بمشيئته، وأنّ ما شاء جلّ وعلا كان وما لم يشأ لم يكن. كما قال الإمام الشّافعي -رحمه الله تعالىٰ- في أبيات عظيمة له جميلة في تقرير الإيمان بالقدر قال :

ما شِئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد علىٰ ما علمته ... وفي العلم يجري الفتىٰ والمُسن
علىٰ ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهٰذا أعنْتَ وذا لم تُعِن
فمنهم شقيٌ ومنهم سعيد ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسن

هٰذا كله بمشيئة الله، وبقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم إنّ الإيمان بالقدر لا يكون إلَّا بالإيمان بمراتبه ولا يكون العبد مؤمنًا بالقدر إلَّا إذا آمن بمراتب القدر. وهي مراتب أربعة، لا يكون العبد مؤمنًا بالقدرِ إلا إذا آمن بها :

---

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم، (ط١٣٩٨، ت:أبو فارس الحلبي).

(٢) أخرجَه الفريابي في القدر رقم (٢٠٥)، وعبدُ الله بْنُ أحمدَ في السُّنَّةِ (ص١٢٣ و١٢٤)، وابن بطة في الإبانة رقم (١٦٢٤)، واللَّالكائيُّ رقم (١٢٢٤).

المرتبة الأولىٰ: الإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ الشَّامل المحيط الواسع لكلّ شيء.

العلم: الإيمان بعِلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنّ الله عَزَّوَجَلَّ أحاطَ بكلِّ شيء علمًا وأحصىٰ كلَّ شيء عددًا.

علم ما كان، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ۖ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾[سبأ].

فالإيمان بعلم الله -جلّ وعلا- المحيط بكلِّ شيء أصلٌ من أصول الإيمان بالقدر وركنٌ من أركانه، قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[الحديد].

هٰذا الأصل الأول أو الرُّكن الأول أو المرتبة الأولىٰ من مراتب الإيمان بالقدر.

المرتبة الثَّانية: الإيمان بالكتاب وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتب كل ما هو كائن في اللَّوح المحفوظ.

ومرّ معنا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحج].

وقال جل وعلا: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[القمر].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس].

هذه الآية من سورة يس ذُكِر فيها نوعان من الكتابة.

النوع الأول: كتابة المَلَك، وهي الكتابة المقارنة للفعل، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾[يس:١٢] هٰذه الكتابة المقارنة للفعل، كل فعل يفعله العبد مباشرة يكتبه الملك، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[ق]، هٰذه الكتابة مقارنة للفعل، وقت الفعل يكتب الملك، إن كانت حسنة كُتِبت حسنة، وإن كانت سيئة كُتِبت سيئة.

[النوع الثاني]: قول الله جلّ وعلا في خَتْمِ الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾[يس] هٰذه الكتابة التي كانت في اللّوح المحفوظ.

والإمام هنا اللَّوح المحفوظ، يُقال له: الإمام، ويُقال له: الزُّبُر، ويُقال له: اللَّوح المحفوظ، والله سُبْحَانَهُ

كتب في اللَّوح المحفوظ كلّ ما هو كائن إلىٰ قيام السّاعة .

قد جاء في الحديث الصحيح أن النَّبي ﷺ قال: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**».(١)

هـٰذا المجلس الذي جلسناه الآن -نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن منَّ علينا به أن يتقبَّله منّا بقبول حسن- كُتب في اللَّوح المحفوظ قبل خلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة.

يقول عبد الله بن عباس -وانظروا - أيُّها الأخوة رعاكم الله- فقه الإمام بالقدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (**كل شيء بقدر حتىٰ وضعُك كفك علىٰ ذقنك هكذا بقدر**).

فالأمور كلُّها مقدّرة وكلُّها مكتوبة في اللَّوح المحفوظ، كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما هو كائن قبل خلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة. هذه المرتبة الثانية.

المرتبة الثَّالثة من مراتب الإيمان بالقدر: الإيمان بمشيئة الله جل وعلا النَّافذة وقُدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشَّاملة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ والإيمان بمشيئته النَّافذة بأن ما شاء الله كان طبقًا لما شاء في الوقت الذي شاء علىٰ الوجه الذي شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما شاء الله كان حتَّىٰ وإن لم يشأ ذلك العبد.

مـا شـئتَ كـان وإن لـم أشـأ ومـا شـئتُ إن لـم تشـأ لـم يكـن

فالشَّيء الذي يشاؤه الله يقع طِبقًا لما شاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، في الوقت الذي شاءه، علىٰ الهيئة والصِّفة التي شاءها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾[التكوير].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أواخر سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾؛ سورة «الإنسان»: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾.

فإذن الإيمان بمشيئة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- النَّافذة وقدرته -جلّ وعز- الشَّاملة، هـٰذا أصل ومرتبة عظيمة من مراتب الإيمان بالقدر.

المَرتبة الرَّابعة: الإيمان بأنَّ الله خالق كلِّ شيء، وأنّ جميع ما وُجد ويوجد فالله خالقه .

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾[الصافات]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾[الزمر]، وقال -جلّ وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾[الفاتحة].

فالإيمان بأن الله هو الخالق لكلِّ شيء هذا أصل من أصول الإيمان بالقدر. خالق كلِّ شيء أي خالق الأشخاص، خالق الذوات، وخالق أيضًا الصِّفات وخالق الأعمال، فأعمال العباد من خير وشر كلّها مخلوقة لله ﷻ لأنّ الله خلق العباد وخلق أعمال العباد، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فالله -جلَّ وعلا- خالق كلّ شيء، فالعبد مخلوق؛ حركات العبد وسكناته مخلوقة لله، الله هو الخالق لكل شيء. الخالق للعبد والخالق لحركاته، فكل حركةٍ تتحرّكُها وقيام وقعود ونوم وركوب وعدم ركوب وغير ذلك من حركاتك؛ هـٰذه كلّها مخلوقة لله.

فالله ﷻ خالق كلِّ شيء. وجميع ما في هـٰذا الكون، وجميع ما في هـٰذه المملكة -مملكة ربِّ العَالمين- كلُّه خلق لله، ولا يمكن أن يكون في مُلك الله ﷻ شيء لم يخلقه ولم يوجِدْه ﷻ، فكلُّ شيء مخلوق لله.

فهـٰذه أربع مراتب عظيمة لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بالإيمان بها.

*العلم * الكتابة * المشيئة * الإيجاد

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

فهـٰذه مراتب الإيمان بالقدر الأربعة.

عندما يسمع المسلم هـٰذا الحديث وهذه النصوص وهـٰذه الدَّلائل وهـٰذه البراهين ينقدح في ذهنه سؤال مهمّ للغاية، ينبغي أن نتنبه له وأن ننتبه جيّدًا لجوابه، ففيه خيرٌ عظيم ونفعٌ عميم.

عندما يقف المسلم علىٰ هـٰذه الأدلة الدّالة علىٰ أنَّ الأمور كلّها بقدر يأتي في ذهنه سؤال ألا وهو: إذا كانت الأمور كلّها مقدّرة وكلّها مكتوبة، ولا يكون أمرٌ إلا بمشيئة الله، لماذا نعمل؟ فيمَ العمل؟

هـٰذا سؤال كما يُقال: يطرح نفسه، والصَّحابة الكرام رضي الله عنهم طرحوه علىٰ النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في غير ما مناسبة وفي غير ما حديث، ولهـٰذا جاء في حديث عليّ رضي الله عنه أنهم سألوا النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقالوا: أنعمل في أمرٍ قُدِّر وقُضي أو في أمر مستأنف؟ - يعني لم يُقدَّر ولم يُقض. فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بل في ما قُدّر وقُضي**»، فقالوا: ففيمَ العمل؟ - وجاء في بعض الرِّوايات قالوا: ألا نتكل علىٰ القدر؟ ما معنىٰ: نتّكل علىٰ القدر؟ يعني كل واحد يجلس لا يعمل ويقول المُقدَّر يأتيني. ألا نتّكل علىٰ القدر؟ في روايات قالوا : ففيمَ العمل؟ فماذا قال؟ وهـٰذه مسألة كبيرة جدًّا ومطروحة والآراء

فيها كثيرة؛ لكن ليس هناك جوابٌ شافٍ لهـٰذه المسألة التي هي من عظيم المسائل ومهمِّها إلَّا كلمَتين قالهما النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- للصَّحابة ففهموهما ووعَوهما وعمِلوا بهما، ولا سعادةَ لعبدٍ ولا نجاة إلَّا بذلك. فلما قالوا له: يا رسول الله؛ فيمَ العمل؟ قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**» ثم تلا قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[اللّيل].(١)

إذن الجواب يتلخَّص في كلمتين «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» يتلخَّص بها الجواب في هاتين الكلمتين: جُملة طلبيَّة وجملة خبرية:

الجملة الطَّلبية: «**اعْمَلُوا**». ولا يُقال: اعمل إلَّا لمن له مشيئة. والعبدّ له مشيئة. قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾[المدثر]، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾[المزمل] العبد له مشيئة، ولهذا يُقال له: اعمل. وإلا لو لم يكن له مشيئة لا يُقال لمن لا مشيئة له: اعمل. فإذًا قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**اعْمَلُوا**» هذه فيه إثبات مشيئة العبد وأن العبد في حركاته وتنقّلاته وقيامه وقعوده وركوعه وطاعاته أو -والعياذ بالله- ومعاصيه كلُّ هـٰذه أعمال يمارسها بمشيئته. ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾[البلد] أي طريق الخير وطريق الشر، فمن ذهب إلىٰ طريق الخير ذهب له بمشيئته ومن ذهب إلىٰ طريق الشر أيضًا ذهب إليه بمشيئته، فله مشيئة، ولهذا قال: «**اعْمَلُوا**»، ولا يُقال: اعمل، إلَّا لمن له مشيئة .

الجملة الخبرية: قال: «**فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» يعني الأمور كلها بمشيئة الله ومشيئة العبد تحت مشيئة الله، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[التكوير].

فتلخّص الجواب - أيها الإخوة الكرام - في أمرين :

الأمر الأول: أن العبد يجاهد نفسه علىٰ الأعمال الصَّالحات والطَّاعات الزَّاكيات والبعد عن الأعمال المحرّمات، وفي الوقت نفسه يلجأ إلىٰ الله، «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».(٢) في الدُّعاء الآخر قال: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ**

---

(١) أخرجه البخاري (ح٤٩٤٩)، ومسلم (ح٢٦٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (ح٥٠٩٠) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

دِينِكَ»[١]، في الدُّعاء في القرآن قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[آل عمران] ، وفي الدُّعاء المَأثور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ**»،[٢] وفي الدُّعاء المَأثور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ** »،[٣] فالأمور بيد الله.

إذًا العبد يجتهد ويجدّ في الأعمال الصّالحات والطّاعات الزّاكيات وفي الوقت نفسه يطلب العون من الله. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[الفاتحة].

جاء رجلٌ إلىٰ النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يسأل عن ناقة كانت معه - قال: يا رسول الله؛ أعقِلُها وأتوكّل أو أطلقها وأتوكّل؟ أي الأمرين أفعل؟ هل أبذل الأسباب وأتوكّل علىٰ الله أم أعطّل الأسباب وأتوكّل علىٰ الله؟ قال: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»،[٤] يعني ابذل السَّبب، فالعبد مطلوبٌ منه أن يبذل السَّبب، وفي الوقت نفسه لا يعتمد علىٰ السَّبب وإنما يعتمد علىٰ مسبّب الأسباب ربّ العالمين جل وعلا، ولهٰذا قال له: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**» لماذا؟ لأن الأمور بمشيئة الله سبحانه وتعالىٰ.

وقد جمع هٰذا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»،[٥] «**وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ** » أي الأمور كلُّها بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومشيئته عَزَّ وَجَلَّ .

والإيمان بالقدر -أيُّها الأخوة الكرام- يفيد العبد فوائد عظيمة، يعطي القلب قوّة ويزيد العبد معرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويذلّل له الصِّعاب ويرزقه الله -جلّ وعلا- بإيمانه بالقدر السِّلوان في المصائب، فإذا أصيب بمصاب تجد المؤمن بالقدر، يسلو بإيمانه بالقدر.

كما قال الله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١].

قال علقمة رحمه الله تعالىٰ: (هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيرضىٰ ويسلّم). يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. ولهذا يقول النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-

---

(١) أخرجه الترمذي (ح٢١٤٠)، وابن ماجه (ح٣٨٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (ح٢٧٢٥).

(٣) أخرجه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (ح ٢٧٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الترمذي (ح٢٥١٧) من حديث أنس بن مالك، وحسنه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (ح٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**».[١]

يعني الأمور كلها مكتوبة ومقدّرة، ولهٰذا المؤمن بالقدر إذا أُصيب بالمصاب سلَّاه إيمانُه بهٰذا، وفزع إلىٰ هٰذا الإيمان فأرشدَه إلىٰ أن الأمور كلُّها بتقدير الله وأنّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وهنا تظهر المِيزة العظيمة للإيمان، يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».[٢]

فالمؤمن في سرّائه شاكر وفي ضرَّائه صابر. في سرَّائه يفوز بثواب الشّاكرين ، وفي ضرَّائه يفوز بثواب الصّابرين. فهو فائزٌ رابحٌ غانم في كلِّ أحواله.

وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يوفقنا جميعًا للأعمال الصّالحات وأن يزيّننا جميعا بزينة الإيمان وأن يجعلنا هُداة مهتدين .

اللّٰهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر.

اللّٰهمَّ آتِ نفوسنا تقواها وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها.

اللّٰهمَّ إنّا نعوذ بك من سوء القضاء وشماتةِ الأعداء ودرَكِ الشَّقاء، اللّٰهمَّ إنَّا نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وبكَ منك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك .

اللّٰهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك وأنعم علىٰ عبد الله ورسوله نبيِّنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه الترمذي (ح٢٥١٦) من حديث عبد الله بن عباس، وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه مسلم (ح٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.